



أسماء الشامية

## عن السليقة اللغوية: مظاهرها . . . تغيرها . . . ثباتها

عبر مقالة «السليقة اللغوية بين ابن جني وتشومسكي»، يختبر عبدالله الجهاد مفهوم السليقة برده إلى تعريفات اللغويين القدامى؛ من خلال أربع مستويات من اللغة: المستوى الصوتي، والصرفي، والتركيبي، والمعجمي؛ محاولاً تبين مصادر السليقة ومدى تعرض أصحابها للخطأ بفعل ظروف عدة نفسية وبيئية، إلى أن يفتح الباب لنظرية تشومسكي التوليدية ورؤاه الشهيرة في الظاهرة اللغوية، ومكانها، وتوابعها، وتأثيرها، وتأثيرها؛ مُستنبطاً أهم مبادئ تشومسكي التي استلهمها من نحاة القرن السابع عشر، وتمييزه بين مظهري القدرة والإنجاز.

يُمكن أن يعكس القدرة تماماً؛ وذلك لأن عوامل كثيرة تؤثر في عملية الكلام كالنسيان وعدم الانتباه والتعب فيزيغ المتكلم عن قواعد لغته. وإذ يعتبر الجهاد أن الإنجاز ما لم يطابق القدرة كل المطابقة القواعد المختزنة في ذهن المتكلم، فإنه لا يمكن عدها لغة سليقة، فإنه يضع نوعين من الخطأ؛ خطأ ظريفي بسبب عوامل نفسية واجتماعية تم ذكرها، وخطأ استمراري متأصل عائد إلى نشاط الفرد المتكلم الذي يحاول تطبيق قواعد لغته وليس إلى النسق اللغوي لعشيرته التي زودته بها منذ خلقه، وأعتقد أن نوعي الخطأ التي وضعهما الجهاد من أجل أن يضع السليقة ضمن كيان مستقل لا يأتيه الخطأ من قبل ولا من بعد قابلان للمناقشة، فهل بالفعل لا يمكن أن تتأثر سليقة العشيرة بأسرها إلا ما يتأثر به فرد منها يخرج عن قواعد لغته نتاج تأثيره بلغة أخرى؟ فإذا افترضنا أن عشيرة ما وفدت إليها عشائر وقبائل تخالطها وتختلط بها؛ فذلك سيتيح لفردات وألفاظ وتراكيب لغوية تتعاقب مع لغة العشيرة الأم؛ بل إن متحدثاً ما كما نرى يمكنه أن يتحدث بالمران والممارسة مع الوقت بلغة قوم آخرين ويتقن قواعدها اللغوية ومخارج حروفها بالتعود، ولا تصبح السليقة حينها سليقة إلا ضمن تاريخ وذاكرة النسق اللغوي لتلك العشيرة الذي يمكن أن يتأثر بعوامل اجتماعية كثيرة، إنما التساؤل إلى أي مدى تستطيع لهجات قوم الصمود أمام المتغيرات العديدة أمام لهجة قوم أخرى؟ وهل بالفعل لم يكن بيد الأعراب في الأمثلة التي ذكرت من قبل يد في تغيير مخارج الحروف بفعل الطبع المتأصل؟ وهل لو كان الأعراب جربوا ممارسة هذه اللغة والمران عليها لظلت ألسنتهم تعجز عن قلب وتطويع مخارج الحروف؟

الناشئ وفق ما يُعلمه عليه محيط العشيرة اللغوية؟ أم أن المقصد من ذلك أن القرآن ببلاغته التي لم تألفها قريش كانت المصدر الأخير للغة النقية البليغة والصفية الخالية من مستبشع الألفاظ وغريبها؟ وهي تلك التي لدى قبيلة قريش هذه الأخيرة التي كانت تجتني من وفود العرب وغير العرب أحسن الألفاظ، وكانت تقبل ما تستحسنه من لغات العرب لتضيفه إلى لغتها. ومن هنا، يؤول ابن فارس اختيار القرآن لينزل بلغة أهل قريش باعتبارها أفصح لغات العرب وأنقأها وأحسنها إذ لم تجد في لغتهم بحسب قوله "لا عنعنة تميم، ولا عجرفة قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربعة، ولا الكسر الذي تسمعه في أسد وقيس".

ويستطيع أي قارئ للقرآن الكريم أن يجد اصطلاحات فارسية فيه من قبيل "استبرق وسندس"، وهذا ما يؤيد قول ابن فارس من أن القبيلة التي نزل القرآن بلغتها كانت تخضع لسانها لحسن الألفاظ من لغات الوفود التي تأتيها وتستحبها وتجمع في سليقتها، ويبدو إذن أن مرونة قريش في استقبال ألفاظ ليست من لسانها هو ما يجعل هذه اللغة أفضلها وخلوها من المستقبح والغريب، وإن لهذه المرونة أسباباً اقتصادية تمثلت في حركة التجارة من وإلى مكة المكرمة، وكذلك موقع مكة الديني باعتبارها حاضنة البيت الحرام.

ويدعم الجهاد في حديثه عن السليقة، وتحققها ما سماه بمظهري "القوة" و"الفاعل" من خلال نظرية تشومسكي "التوليدية التحويلية"، التي استنبط منها مظهري "القدرة" و"الإنجاز" من أجل أن يصل تشومسكي إلى غاية باعتبار أن "القدرة" هي المعرفة اللغوية التي يمتلكها المتكلم. أما "الإنجاز"، فهو تجسيد الكلام واقعاً بغيره إتمام الاتصال بين متحدثين، ولا يمكن أن تتم أي عملية تواصل بدونها؛ فهما يمثلان نوعين من الإبداعية التي سماها تشومسكي "المظهر المبدع" فثمة إبداعية تحكمها القواعد تنتمي إلى "القدرة" وإبداعية تنحرف عن هذه القواعد تنتمي إلى "الإنجاز" وهذا الأخير لا

جزءاً أساسياً من الإنتاج اللغوي عائد إلى ظروف اجتماعية ونفسية محضة توجه طبيعة الكلام، وأتساءل هنا: إلى أي مدى يمكن أن تتسم السليقة بالتجريدية؟ أعني هل تقتضي السليقة إتمامها بحسب ما اندرج عليه الطبع بحيث تنتج اللغة خالصة بتركيباتها المهودة كما يسميها الطفل لأول مرة من محيطه؟ أم أن ثمة عوامل نفسية واجتماعية تغلب في تشكيل الملكة وتوجهها نحو تراكيب مختلفة من جيل إلى جيل؟ وهذه التساؤلات تقودنا إلى مدخل آخر عما إذا كانت اللغة طبعاً أم تطبعاً؟ ومن ذلك رواية أخرى للأصمعي؛ إذ لقي أعرابياً، فقال له قل "يا أيها الكافرون" فقال "كل يا أيها الكافرون"، فقال له: "قل يا أيها الكافرون" كما أقول لك، قال الأعرابي: ما أجد لساني ينطق بذلك!

ومن ذلك، نستنتج أن السليقة متمكنة في نفوس الأعراب تمكناً يُصبح معه محاولة جرهم على السلوك القواعدي والنظري مما هو معروف في البيئة المحيطة بهم مُستحيلاً، وذهب بعضهم -مثل تشومسكي- إلى أن ثمة عوامل نفسية وجينية في تشكيل اللغة بالرغم من أن التراكيب النحوية مصدرها الإعراب. وهذا الرأي يؤكد جهل الطفل بقواعد لغته وتركيبها النحوي عندما يبدأ في نطق العبارات والجمل، بل إن ثمة استعداد وجاهزية نفسية تجعله يستوعب العبارة التي تلقاها في ذهنه دون حاجته إلى معرفة مستوياتها اللغوية، مثلما نظم الشعراء القدامى المعلقة في حين لم يدركوا التعقيد النحوي للفاعل والفاعل والمفعول وما اتصل بذلك.

وعن مصدر هذه السليقة، يرى الجهاد أن السؤال عن هذا المصدر يعني أيضاً التساؤل عن مصدر اللغة العربية الفصيحة؛ باعتبار أن اللغويين القدامى كانوا يدرسون اللغة العربية فقط، وهو يرجع مصدرها إلى القرآن الكريم. وإذ نزل القرآن بلهجة أهل قريش باعتبارها أفصح اللهجات أتساءل كيف يُمكننا أن نعتبر أن مصدر السليقة عموماً هو القرآن إذا كانت لكل قبيلة سليقة لغوية ما يكتسبها

... إن الحديث عن ماهية السليقة ومحاولة تحديد طبيعتها يأتي عبر استعراض آراء اللغويين الذين تعرضوا للمفهوم بما يتفق وثقافتهم وعقائدهم، وقبل أن نعرف السليقة وجب أن نفرق بين نوعين من المتكلمين؛ أولهما: من يشعرون بخصائصها، وثانيهما: من لا يكادون يشعرون بتلك الخصائص؛ فالفريق الأول معرفته باللغة علمية محضة عن غير اكتساب. أما الفريق الثاني، فيتحدثون بناءً على ملكة لغوية اكتسبوها، وإجمالاً -وبحسب الجهاد- يُمكننا القول بأن السليقة هي "سجية وطبع وملكة"، هذه السجية التي بدأت تقع في اللحن والخطأ والمأخذ اللغوية عند الشعراء مع تقدم الزمن واختلاط الأعراف، هذه المأخذ التي تصيدها النحاة وعابوا عليهم انحرافهم عن اللسان العربي الفصيح ليتحول إلى لسان مُتكلف مُتفاصح!

... إن الجهاد في استعراضه لموضوع السليقة يركز على آراء اللغوي ابن جني في المستويات الأربعة يبدؤها بالمستوى الصوتي؛ فضمن ذلك ما سئل إياه الأعرابي من قراءة آية "فطوبى لهم وحسن مآب"، فقرأها "فطوبي لهم وحسن مآب"، ولما حمل على أن ينطقها: طو طو، نطقها: طي، طي عاجراً عن نطقها على خلاف سليقته، وما لاحظته ابن قتيبة من أن الهذلي يقرأ "عتي حين"، وهو "يريد حتى حين"، ويعلق الجهاد أن اللحن على المستوى الصوتي هذا عائد إلى عيوب كلامية بسبب عوامل عضوية من إصابة الجهاز الصوتي بالتلف أو التشوه وما شابه.

وكذلك على المستوى الصرفي؛ مثل جمع الإعرابي لكلمة "عثمان" إلى "عثمانون" وليس "عثامين"، ويرجع الجهاد ذلك لطبيعة الأعرابي السليقية التي توجهها توجهاً سديداً للإنتاج اللغوي على ذات الوتيرة متى ما توافرت الظروف لذلك، وكذلك على المستوى التركيبي والمعجمي. إذن؛ نلاحظ -بحسب ما مضى- أن